البحث الثاني

العلاقة بين الصابئة المندائيين
والديانات السماوية الأخرى

الصابئة المندائيون يحترمون جميع الأديان السماوية في المجتمع والعالم، ويعيشون معهم بسلام وألفة، لذا حظي الصابئة المندائيون بحب واحترام الجميع. وهناك أوجه تشابه بين بعض الطقوس المندائية وبعض الشعائر الإسلامية في التوحيد والوضوء والصلاة والمحرمات.

أما العلاقة بالمسيحيين فتعود إلى صلة القربى بين السيد المسيح يحيى بن زكريا الذي عمده في نهر الأردن، كذلك يتشابهون في اللغة وتقديس يوم الأحد واعتبار التعميد شريعة دينية أساسية والصوم عن تناول اللحوم أيام معدودات، أما العلاقة باليهود، فهناك شعائر دينية متشابهة وكلهم من الساميين، هذا باختصار شديد.

وعن علاقتهم مع إخوانهم المسلمين: يذكر لنا القرآن الكريم الصابئة المندائيين، في عدد من آياته البينات، ففي الآية ٦٢ من سورة البقرة: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

كذلك ورد ذكرهم في سورة الحج والمائدة بنفس المعنى ونفس التأكيد، كذلك ذكر نبيهم يحيى بن زكريا في سورة مريم {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا}... {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}... ويأمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة وكلمة كتاب في المندائية تعني السيدرا، والسيدرا تعني الكنزا ربا (الكنز العظيم) الكتاب المقدس للمندائيين.

عاش الصابئة المندائيون في كنف المسلمين قروناً طويلة أخوةً وأصدقاءً وجيراناً يحب بعضهم بعض ويأتمن بعضهم بعض، وخير صداقة عبر التاريخ صداقة الشريف الرضي بأبي إسحاق الصابي، لكونها مدونة في مؤلفات عديدة وفي جملة من القصائد والأشعار.

لقد شارك المندائيون في بناء الدولة الإسلامية وخاصة في العصر العباسي المزدهر، وبرز منهم علماء وأدباء وفلاسفة وأطباء؛ منهم ثابت بن قرة وأحفاده وأبو إسحاق الصابي وغيرهم كثيرون.

يشترك المسلمون والصابئة المندائيون بركن التوحيد والصدقة والصوم والصلاة إلى حد بعيد، فكلاهما يؤكدان بأدلة وبراهين لا تقبل الشك أو التأويل أن الله جلت قدرته واحد أحد لا أب له ولا ولد، خالق كل شيء وبأمره صار كل شيء، رب الأكوان العليا والوسطى والسفلى ملك النور السامي.

لقد تأثر الصابئة المندائيون بالمسلمين وأثروا فيهم عبر الحقب التاريخية الطويلة ولكنهم حافظوا على ديانتهم التوحيدية المستقلة عن كافة الديانات والمذاهب تتشابه المحرمات وتقترب كثيرًا بين الأخوة المسلمين والصابئة المندائيين ومنها

- التجديف باسم الخالق.
- القتل، الزنا، السرقة، الكذب.
- شهادة الزور، خيانة الأمانة.
- عبادة الشهوات، عبادة الأصنام والأوثان والكواكب والأبراج وأي شيء غير الخالق الله سبحانه.
- الشعوذة والسحر.
- الربا وربا الربا.
- أكل الميت والدم والطير الجارح والحيوان الكاسر.

هنالك عدد لا يُحصى من الكتاب والباحثين المسلمين الذين حاولوا البحث عن الصابئة المندائيين[1]، ومن المعاصرين الدكتور رشيد الخيون ودعواته الصريحة والصادقة إلى معاينة الكتب الدينية المندائية ودراستها والتعمق بها والوقوف على ما فيها من فكر وفلسفة وتوحيد للخالق، وما فيها من معاني إنسانية وحضارية وثقافية، وأُسس دينية رفيعة تمجد الحي العظيم وتعظمه في علاه.

ولهذا نعتقد أن هذا البحث سيسهل على الباحث أن يضع في يده مفتاحًا علميًا ييسر له الخروج من باب الغموض والكتمان الذي ساد قرونًا، وأن يخلق حوارًا يعتمد المعرفة والفهم العميق والمحبة والتعايش بسلام وأمان، والمثقفون المسلمون يعرفون حق المعرفة معلومات قيمة عن الصابئة المندائيين، منها:

١- الصابئة المندائيون يحرمون كافة الأشكال العقائدية والمنهجية التي تتبعها الماسونية بكل أشكالها، ولذلك فهم أبعد ما يكون عن أي شكل من أشكالها.

٢- الصابئة المندائيون لم يكونوا في يوم من الأيام فرقة مسيحية أو يهودية ويخالفونهم في كثير من الأمور[2]، حتى النبي يحيى بن زكريا تختلف صورته في حياته وفي مماته وفي تعاليمه عن وصف النصوص المسيحية في كثير من الأمور، وخاصة قصة وفاته.

٣- موقعهم بين الشعوب فيه نوع من التشابه مع المسلمين السنة والشيعة، فهم مستهدفين بسبب نقائهم وصدقهم وتوحيدهم لله عز وجل الواحد الأحد.

٤- من الضرورة جدًا أن ينظر المسلمين لإخوانهم الصابئة المندائيين من خلال الآيات القرآنية التي أنصفتهم وأعطتهم حقهم، واعتبرتهم من الموجودين بعيدًا عما ذهب إليه بعض المتشددين والحانقين والمتطرفين والطائفيين.

١- الصابئة المندائيون تراث حي موغل في القدم، فبدلاً من البحث تحت التراب عن أدلة وبراهين فهم أحسن شواهد وتراث.

٢- المندائية سبقت اليهودية في تعاليمها وفي توحيدها، وهناك من الباحثين يؤكدون أن ..سيد المسيح (ع) تتلمذ على يد النبي يحيى بن زكريا (ع)، وقام وعمده في نهر الأردن كما تذكر لنا الكتب الدينية السماوية، كما أن الصابئة المندائيين هم أصحاب المذهب الحنفي، مذهب التوحيد، وكثير من الشخصيات المندائية المشهورة التي سبقت الإسلام وأدركته كانوا أحنافًا في شبه الجزيرة العربية، حتى أن الشاعر المشهور أمية بن الصلت سأل الرسول الكريم محمد (ص) ما هذا الذي تدعوا إليه يا دمحم، قال حنفية إبراهيم فأجابه إني عليها.

٥- تلتقي الديانة المندائية بالديانة الإسلامية لقاء حميمي بركن التوحيد المقدس وبأمور كثيرة منها الصدقة والصوم والصلاة والوضوء[١].

٦- الصابئة المندائيون بعيدين كل البعد عن الخلافات المذهبية، فهم يؤمنون بكتاب واحد ونفس الأنبياء، وأركان الدين عندهم واحدة، ونفس الطقوس والشعائر الدينية، وهم يتعاملون مع إخوتهم المسلمين كحالة واحدة ولا علاقة لهم بالفرق والمذاهب.

٧- الصابئة المندائيون يملكون من الحب ما يكفي الجميع، فدينهم دين محبة وسلام وتسامح ورحمة وأخاء، كإخوتهم المسلمين تمامًا، ولهذا لا يمكن أن يحدث في يوم من الأيام أي عداء لا سمح الله.

٨- لوجودهم فوائد كبيرة، فهم يمثلون تاريخًا سحيقًا مازال قائمًا في القرن الحادي والعشرين، إنهم تراث ديني قديم وعميق، وفلسفة الشرق القديم فيهم، وفلسفة الإغريق، فبدلاً من البحث في الآثار ونبش التراب للبحث عن أدلة وشواهد وبراهين، نجد المندائية كلها شواهد وتراث وتاريخ قديم حي يرحب بالباحثين والمتشوقين للمعرفة.

٩- بسبب وجود الصابئة المندائيين خمسة عشر قرنًا داخل المجتمع الإسلامي؛ تأثروا كثيرًا بالثقافة الإسلامية، ولكن مع ذلك حافظوا على هويتهم الدينية.

١٠- تأثرت بعقائدهم كثير من الفرق الإسلامية وخاصة الصوفية منها، ولغرض الكشف عن ملابسات الصوفية لابد من دراسة المندائية، فبالرغم من تأثر الصوفية بهم إلا أن بينهم اختلاف.

١- تواجد الصابئة المندائيين في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وسموهم الأحناف وكانوا الصابئين والحنفيين موحدين يدعون إلى الله الواحد الأحد، فبينما كانت قريش تعبد الأصنام تقربًا إلى الله سبحانه وتعالى ؛ كان المندائيون يوحدون الله ويعظمونه ويذكرون أنه واحد أحد، لا والد له ولا ولد، وهناك من الباحثين يؤكدون أن المندائيين يقربون الملائكة كواسطة للتقرب إلى الله، أما الأحناف فيقبلون الله جل جلاله بشكل مباشر، بينما كثير من الكتب تؤكد أن الأحناف أتباع نبي الله إبراهيم الخليل (ع)، وهو أحد أنبياء الصابئة المندائيين، وهو الذي دعا إلى الحنفية، ودعا إلى الله عادة الله جلت قدرته، فالمندائيون يدعون الله ويعظمونه ويمجدونه بأسمائه الحسنى.

١١- ضرورة تصحيح كل المغالطات التاريخية بحقهم من افتراءات وادعاءات مثل أشيع القطيعي وعبد الرازق الحسني والجاحظ وغيرهم، وضرورة الكشف عن حقيقة الأمور وإبطال كل الأباطيل وتكذيب كل الأكاذيب، فلا يصح إلا الصحيح، ولا يحق إلا الحق.

في حقبات كثيرة من الزمن جارت عليهم الأديان السماوية، وألصق المتشددين والسلفيين بهم تهم باطلة لا أساس لها من الصحة، إن الدين اليهودي والقائمين عليه قد زوروا كثيرًا من الحقائق التاريخية وهضموا كثيرًا من حقوق الصابئة المندائيين، ويقول أحد المستشرقين الألمان إنه لغرض التعرف على المسيحية توجب البحث في النصوص المندائية، وكذلك نحن نقول لغرض التقرب من اليهودية وجب التعرف وفهم النصوص المندائية والإطلاع على الكتب المندائية.

لقد جار اليهود عليهم في فلسطين، فرحلوا مجبرين إلى حران ، ثم نزلوا إلى بطائح العراق وجنوب غرب إيران قرب المياه البهية، فأقاموا في بلدان ما بين النهرين أكثر من عشرين قرنًا، وتأثر بهم السومريون والبابليون وغيرهم من الأقوام.

وبعد الغزو الأمريكي الغاشم للعراق أهدر عددٌ من المتطرفين والطائفيين أرواحهم وأعراضهم وأموالهم أسوة بكل العراقيين النجباء ، فحملوا كتبهم وتراثهم وهاجروا إلى أوروبا مكرهين ، وهنا منهم من هاجر إلى أستراليا وأمريكا وكندا، وهناك محطات انتظار في سوريا والأردن وغيرها من الدول العربية أملاً بالالتحاق بالآخرين، أجسامهم في دولة المهجر وقلوبهم وعيونهم ترنو إلى الوطن الأم العراق، الذي بعض أديمه من أجساد أجدادهم.